

## دروس مستفادة من تاريخ المكتبات الإسلامية

- \* النشأة والأنواع .
- \* المباني والتجهيزات .
- \* الموارد المالية ووجه الانفاق .
- \* العاملون .
- \* المجموعات .
- \* النظم والإجراءات الفنية .
- \* الخدمات والأنشطة .



## تمهيد:

نستفتح بالذى هو خير، بخير الكلام، كلام الله. يقول الله عز وجل، ولم يزل قائلاً: «ولله خزائن السموات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون»<sup>(١)</sup>. والحديث هنا عن نوع من هذه الخزائن، وهى خزائن الكتب، أو دور الكتب، أو دور العلم - سمها ما شئت - والتي يحفل التاريخ الإسلامى بذكر العديد منها وعنها. والحق يقال أن تاريخ هذه الخزائن وكل ما يتصل به من تراث فكرى، هو تاريخ الأمة الإسلامية، فخزائن الكتب أو ما نطلق عليه اليوم المكتبات ومراكز المعلومات هى - دون مبالغة - عقل الأمة، وقلبها النابض، ولسانها الناطق.

وتتناول هذه الدراسة تحديداً جانباً من تاريخ خزائن الكتب الإسلامية وهى: خزائن الكتب العباسية، وتبحث فى مواردها، ونظمها، وخدماتها فى الفترة من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٦٥٦هـ وهى فترة تزيد على خمسة قرون تمثل عمر الدولة العباسية.

وكما عمرَ حكم بنى العباس طويلاً فقد اتسعت رقعة دولتهم لتشمل مساحة كبيرة من المعمورة، انقسمت إلى أربعة عشر إقليماً ذكرها المقدسى تفصيلاً فى كتابه: «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم».

وقد غطت الدراسة البعد التاريخى للدولة العباسية بأكمله، وإن اقتصرنا فى بعدها الجغرافى على ما اصطلاح على تسميته بالعراق العربى والعجمى.

(١) المنافقون: ٧.

وشهدت الدولة العباسية فى حياتها السياسية تفككاً خطيراً نتج عنه انسلاخ أجزاء منها، وتكون دول ودويلات مستقلة وفى حياتها ضم العالم الإسلامى ثلاثة مراكز للخلافة، واحدة عباسية فى بغداد، والثانية أموية فى الأندلس، والثالثة فاطمية فى مصر. ولم يسلم المشرق القريب من الخلافة العباسية من هذا التفكك فقد استقلت الدولة الطاهرية ثم الصفارية فى بلاد فارس، كما قامت الدولة السامانية.

ومنذ اليوم الأول لقيامها، ارتكزت الحضارة الإسلامية فى الدولة العباسية - رغم التفكك السياسى - على مجموعة من الركائز أو الخصائص كان من أبرزها تقدير العلم والعلماء، واحترام الكتب كأوعية للمعارف والعلوم. وقد تحول هذا الاحترام والتقدير إلى حب تولد من حب القرآن الكريم، وأثمر اهتماماً شديداً بدور العلم ومؤساته، وكل ما له صلة بالعلم، بما فى ذلك خزائن الكتب.

وكمؤسسة حضارية تبارى المسلمون حكماً ومحكومين فى إنشاء خزائن الكتب، تعبيراً عن جهم وتقديرهم للعلم وأدواته، ومن أهمها الكتب.

وتهدف هذه الدراسة - ضمن ما تهدف - إلى المشاركة أو الإسهام فى كتابة تاريخ خزائن الكتب فى العالم الإسلامى بأبعاده التاريخية الثلاثة (القديم والوسيط والحديث)، فضلاً عن البعد الجغرافى، ذلك أن تاريخ المكتبات فى العالم الإسلامى لم يكتب بعد بالمعنى الشامل والمنهجى. وما كتب حتى الآن لا يعدو أن يكون نتفاً وشتاتاً لا يجمعها رابط أو منهج.

ويعد العصر العباسى - موضوع الدراسة - بمثابة الفترة الذهبية التى عاشتها خزائن الكتب الإسلامية، والتى لا يمكن لأية دراسة عن تاريخ المكتبات أن تتجاهلها خاصة أن ما قبلها من عصور تاريخية - عاشت فى ظلها خزائن الكتب - كانت بمثابة فترة المولد والحضانة.

ولا شك أن التاريخ ودراسه بالنسبة لأى علم من العلوم يعد بمثابة الركيزة أو

الأساس الذى يقام عليه العلم ويؤسس . والواقع المعاش لعلومنا ومكتباتنا ومهنتنا يؤكد حاجتنا الماسة لهذه الركيزة أو الأساس .

ومن الأمور المؤسفة أن جمهرة من الدارسين والعاملين بالمهنة لا يدركون أن دراسة تاريخ مكتباتنا يقدم لنا معيناً لا ينضب من التجارب المثمرة، ويعيننا على فهم الحاضر، وتفسير ظواهره، والتنبؤ بالمستقبل، وهذا هدف آخر من أهداف الدراسة .

أما الهدف الثالث والأخير فهو التعرف على عناصر ومكونات الخدمة المكتبية فى العصر العباسى (الموارد، والتنظيم والخدمات)، والتثبت من أن أى نقص أو غياب لأى عنصر من هذه العناصر أو عناصرها الفرعية يؤثر لا محالة فى الخدمة ذاتها، وأن اكتمال هذه العناصر كماً وكيفاً يؤدي إلى ازدهار الخدمة .

هذا عن موضوع الدراسة وأهدافها وأهميتها. ولكن ماذا عن الدروس المستفادة؟ إن الدروس المستفادة من تاريخ هذه الخزائن أكثر من أن تستوعبها طاقة باحث فرد وتتفق منذ البداية على أننا لن نعددها درساً درساً، بل نترك ذلك لفظنة القارئ، وجميل متابعتة، وما يفتح الله به عليه .

وكمدخل للموضوع نبدأ بالحديث عن نشأة خزائن الكتب العباسية وأنواعها، ثم نتقل بعدها للحديث عن الموارد المادية ممثلة فى المباني والتجهيزات والموارد المالية، وبعدها نتناول موضوع العاملين كمورد بشري، ومنه نتقل تفصيلاً إلى بقية الموضوعات ذات الصلة بنظم العمل فى هذه الخزائن والخدمات التى تقدمها، والأنشطة المدعمة والمكملة لهذه الخدمات .

## أولاً : النشأة والأنواع

بدأت خزائن الكتب الاسلامية فى الظهور فى قصور الخلفاء الأمويين وغيرهم من كبار رجالات الدولة الأموية، ونذكر من هذه الخزائن على سبيل المثال:

١ - خزانة كتب الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١ - ٦٠هـ)، وهى أقدم هذه الخزائن، وقد كان لمعاوية غلمان مرتبون وكلوا بحفظ دفاتر خزائنه وقراءتها له - كما يقول المسعودى فى مروجه.

٢ - خزانة كتب خالد بن يزيد بن معاوية (ت سنة ٨٥هـ)، والذى أنشأ ما يمكن أن نطلق عليه خزانة كتب متخصصة فى مجال العلوم (الطب والكيمياء والنجوم).

٣ - خزانة كتب خلفاء بني أمية، وقد أشار إليها ابن جلدجل فى طبقاته بقوله «وجد عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - (٩٩ - ١٠١هـ) كتاب أهرن بن أعين القس فى الطب فى خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضع فى مصلاه فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له فى ذلك أربعين (والصواب أربعون) صباحاً، أخرجه إلى الناس، وبثه فى أيديهم».

وتوحي عبارة «خزائن الكتب» فى حديث ابن جلدجل بأنه كانت توجد فى خدمة الخلفية الأموى عمر بن عبد العزيز مجموعة من الخزائن، هى خزائن الخلفاء الأمويين السابقين، وقد آلت لعمر بن عبد العزيز.

وتمثل خزائن الكتب الأموية البدايات المتواضعة لخزائن الكتب الإسلامية، والبذرة الأولى التي بدأت تؤتي ثمارها في العصر العباسي الذي عرف معظم أنواع خزائن الكتب المعروفة الآن.

ونتناول فيما يلي بإيجاز هذه الأنواع التي شكلت فيما بينها شبكة كاملة من خزائن الكتب غطت أرجاء الدولة العباسية المترامية.

### ١ - خزائن الكتب الخاصة:

وهي الأقدم من حيث النشأة، فضلاً عن الكثرة والانتشار، وكانت في معظمها للخلفاء والسلطين والوزراء والعلماء والأدباء.

### ٢ - خزانة كتب الدولة (بيت الحكمة):

في حديثه عن أعظم خزائن الكتب في الإسلام يذكر القلقشندي في موسوعته صبح الأعشى ثلاث خزائن، إحداها خزائن كتب الخلفاء العباسيين ببغداد، ويعنى بها بيت الحكمة، والثانية خزائن كتب الخلفاء الفاطميين بمصر، والثالثة خزانة خلفاء بني أمية بالأندلس.

### ٣ - خزائن الكتب العامة:

كان من نتائج إنشاء بيت الحكمة التنافس بين كبار رجالات الدولة العباسية وأدبائها وعلمائها - خاصة الموسرين منهم - التنافس في إنشاء خزائن الكتب العامة؛ وقد اشتهر من هذه الخزائن:

أ - خزانة كتب الحكمة بكركر (ق ٣هـ).

ب - دار العلم بالموصل (ق ٤هـ).

ج - دار الكتب أو خزانة الوقف بالبصرة (ق ٥هـ).

د - دار العلم ببغداد (ق ٥٥هـ).

هـ - خزنة كتب دار المسناة ببغداد (ق ٦ / ٧هـ).

#### ٤ - خزائن كتب المساجد:

بدأ المسجد فى أداء رسالته التعليمية مع ظهور الإسلام وكان لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل السبق فى هذا المجال. وقد حث عليه الصلاة والسلام عامة المسلمين على بناء المساجد فقال:

«من بنى لله مسجداً... بنى الله له بيتاً فى الجنة»، وكانت المساجد - بصفة عامة - من أنسب الأماكن لإنشاء خزائن الكتب.

ومن أشهر الخزائن الملحقة بالمساجد فى العصر العباسى:

أ - خزنة كتب جامع ميفارقين، وجامع آمد بديار بكر.

ب - خزنة كتب الوقف بمسجد الزيدى ببغداد.

ج - الخزنة العزيزية والخزنة الكمالية بمرو.

د - خزنة كتب جامع البصرة.

هـ - خزنة كتب جامع قمرية ببغداد.

#### ٥ - خزائن كتب المدارس:

ومع إقبال المسلمين على التعليم، وانتشار المساجد، وكثرة الحلقات التعليمية وغيرها داخل المساجد أحس المسلمون بالحاجة الماسة إلى إنشاء المدارس. وشهد النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى مولد هذه المدارس، ومن أشهر خزائن كتبها:

أ - خزنة كتب مدرسة أبى حنيفة (ق ٥٥هـ).

ب - خزنة كتب المدرسة النظامية (ق ٥٥هـ).

ج - خزانة كتب المدرسة المستنصرية (ق ٧هـ).

وثلاثتها ببغداد.

٦ - خزائن كتب البيمار ستانات والربط والترب وغيرها:

وعرفت الدولة العباسية أنواعاً أخرى من الخزائن، كان من بينها خزائن الكتب الملحقة بدور المرضى (البيمار ستانات) والملحقة بالربط، والملحقة بالترب والمشاهد والأضرحة وغيرها.

ونذكر منها على سبيل المثال:

أ - خزانة كتب المارستان العضدى ببغداد (ق ٤هـ).

ب - خزانة كتب رباط أصحاب الحديث فى مرو (ق ٦هـ).

ج - خزانة كتب الرباط بالحريم الطاهرى (ق ٦ / ٧هـ).

د - خزانة الكتب الملحقة بتربة زوجة الخليفة الناصر (ق ٦هـ).

وهكذا شهدت بغداد وما حولها من المدن كل أنواع المكتبات التى نعرفها اليوم، وقد توافرت عناصر تقديم الخدمات والأنشطة فى هذه المكتبات من موارد مادية وبشرية ونظم، وهذا ما سنتناوله تفصيلاً فيما يلى:

## ثانياً: المباني والتجهيزات

اتصفت خزائن الكتب العباسية بالسعة والنفاسة والجمال. وفى عبارات بليغة وموجزة، يصف ياقوت الحموى الجو المحيط بمبنى الحكمة بكركر بقوله «كان لعلى بن المنجم (ت سنة ٢٧٥هـ) ضيعة نفيسة، وقصر جليل، فيه خزانة كتب عظيمة».

ويصف المقدسى دار عضد الدولة البويهى (ت سنة ٣٧٢هـ) فى شيراز - بما فى ذلك خزانة الكتب الملحقة - بقوله:

«لم أر في شرق ولا غرب مثلها، ما دخلها عامي إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها... فيها ثلاثمائة وستون حجرة وداراً، كان مجلسه كل يوم واحدة إلى الحول، وهي سفلى وعلو، وخزانة الكتب حجرة على حدة... وهي أرح (بناء مستطيل مقوس السقف) طويل في صفة (بهو واسع على السقف) كبيرة».

ويقول الأربلي في وصف المدرسة المستنصرية - وخزانة الكتب جزء منها - إنها «جاءت محكمة البناء، راسخة في الماء، فسيحة الفناء، وصفها غريب، وحسن ترتيبها عجيب، شامخة إلى عنان السماء، تضحك شرفاتها بالسرور، ويظهر في أبنيتها الفرح والحبور، ويلمع العز في جوانبها، ويظهر السعد من أساسها وأعلىها».

واتسعت قاعات خزائن الكتب لتستوعب كافة العاملين بها، والمُشرفين عليها، كما اتسعت في الوقت ذاته لتستوعب فئات الرواد، هذا بالإضافة إلى استيعابها مجموعات الكتب العربية والأجنبية، وغيرها من المواد، فضلاً عن المرافق أو الملاحق التي أعدت لخدمة العاملين والرواد، خاصة المقيمين منهم بالخزائن. ومن البديهي أنه ألحق بهذه المرافق مساحات أخرى خصصت لتناول الطعام، وللحمامات، وغير ذلك.

وأفردت بعض الخزائن - خاصة الملحقة بدور العلم - حجرات لتقديم الخدمات والأنشطة غير القراءة لروادها كإلقاء المحاضرات والخطب والشعر، وغير ذلك. ومن هذه الخزائن دار العلم بالموصل، ودار العلم ببغداد.

واستُخدمت بعض القاعات كمنتدى وملتقى للرواد، ومنها خزانة الوقف (دار الكتب) بالبصرة، وقد كانت كما يصفها الحريري (ت سنة ٥١٦هـ) «منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين» وهي تعد بذلك بمثابة مركز ثقافي واجتماعي وإعلامي وترفيهي، فضلاً عن كونها أساساً مركزاً تعليمياً.

وتم تجهيز الخزائن بالأثاث والتجهيزات والأدوات المناسبة لحفظ المجموعات

وصيانتها، وتسهيل استخدامها وتناولها، ولتكون هذه الخزائن مهيأة لاستقبال وإقامة الرواد وراحتهم، فضلاً عن راحة العاملين ورفاهيتهم.

ومن خلال النصوص المتاحة نستعرض بعض مفردات هذه التجهيزات:

في عبارة موجزة يصف الأربلي مباني وتجهيزات المدرسة المستنصرية - وخزانة الكتب جزء منها - بقوله: «لما تكملت أبنيتها، كُسيّت بأفخر الملابس، ونجّلت كأحسن العرائس»، والكسوة هنا كل ما كسا وغطى أرض المبنى وجدرانها من بسط وفرش ومراتب وملاحف وستور وغير ذلك.

وكان القوم في مجالسهم يميلون إلى ما يعرف اليوم بالجلسة الشرقية أو العربية، وهي افتراش الأرض باستخدام السجاجيد أو البسط أو الحصر أو المراتب وغيرها.

ويتحدث المقدسي عن الدار التي بناها عضد الدولة البويهى فى شيراز - وخزانة الكتب حجرة على حدة فيها فيقول:

«طفت فى الدار كلها، سفلهها وعلوها، وقد فرُشت فيها الآلات، فرأيت فى كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور».

ولأن النسخ فى بعض الخزائن كان لا ينقطع، ولأن عمل النساخ كان لا يتوقف، فقد أعد بعض أصحاب خزائن الكتب الخاصة أماكن لمبيت النساخ وزودوها بالملاحف والأكياس، ومن هؤلاء: أبو شيبة السدوسى (ت سنة ٢٦٢ هـ) وكان يعد أربعين لحافاً لمن يبيت عنده من الوراقين، وأبو نصر سهل بن المرزبان (ت سنة ٤٢٠ هـ) ركان عنده خمسون لحافاً وكيساً لمن يبيت عنده من النساخ.

وفى وصف دقيق ومفصل للخزائن الخشبية المستخدمة فى خزانة كتب عضد الدولة البويهى (ت سنة ٣٧٢ هـ) نطالع ما ذكره المقدسى:

«فيه - أى مبنى الخزانة - خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب تنحدر من فوق».

ويوحى هذا الوصف بأن مصمى هذا الخزائن الخشبية قد حاولوا استغلال كافة الفراغات فى مبنى الخزانة لاستيعاب الأعداد الكبيرة من الكتب، فالخزائن من كل وجه، كما أنها تتصف بأنها عملية فى تناولها ولا تحتاج إلى سلالم أو غيرها للوصول إلى الكتب، خاصة فى الأرفف العليا، فهى فى متناول الرجل العادى. وللوقاية والحفظ من الأتربة - وربما السرقة وغيرها - فقد أضيفت للخزانة أبواب مرنة (تنحدر من فوق).

وفضلاً عن كل هذه الميزات فقد أضيفت بعض اللمسات الجمالية والفنية إلى الخزائن، واستخدم الخشب المزوق لتكون هذه الخزائن فى مستوى فخامة وجمال المبنى، ودار عضد الدولة البويهى ككل.

## ثالثاً: الموارد المالية ووجوه الإنفاق

### ١ - الموارد المالية (الإيرادات):

اهتم خلفاء الدولة العباسية، وغيرهم من كبار رجالها بإنفاق المال فى أوجهه الشرعية، ومن أهمها إنفاقه فى سبيل العلم ونشره، وكان لخزائن الكتب النصيب الأوفر من هذه النفقات.

وعبرت الأوقاف السخية التى حبسها العباسيون على خزائن الكتب، وغيرها من الأموال والهيئات عن التقدير الحقيقى لكرامة العلم والعلماء، والإيمان بالدور الذى تؤديه خزائن الكتب كمؤسسات تربوية وتعليمية.

وكان الوقف مورداً مالياً رئيسياً، وربما فاق ما رصدته الدولة من أموال عامة للإنفاق على خزانة كتب الدولة (بيت الحكمة). وقد تنافس الجميع فى

هذا المجال - كل حسب قدرته - مستلهمين هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

ولم تكن الأوقاف التي يوقفها أصحابها هي المورد المالى الوحيد للإنفاق على الخزائن، فقد كانت هناك المبالغ المالية التي يرصدها أصحابها لبناء وإنشاء مباني الخزائن، وصيانتها، وتأثيثها وتجهيزها، وتزويدها بالكتب وغيرها من المواد، وبالعدد المناسب من العاملين، وغير ذلك. وهذه المبالغ والنفقات غير الهبات العديدة، المالية وغير المالية، التي يقدمها رجال الخير.

ويمكن أن نستنتج مدى ضخامة المبالغ والنفقات التي تم رصدها إذا عرفنا أن رجلاً واحداً هو أبو الحسن على بن يحيى المنجم (ت سنة ٢٧٥هـ) قد رصد المبالغ اللازمة للإنفاق على خزانة الحكمة بكركر، وقد تحمل بمفرده نفقات إنشاء مبنى الخزانة، وصيانتها وتجهيزها، وبناء مجموعات الخزانة وإعدادها للاستعمال، بالإضافة إلى رواتب العاملين، ونفقات الرواد خاصة المقيمين منهم بالخزانة إقامة دائمة.

وهناك أيضاً إبراهيم بن اسحق الحربى (ت سنة ٢٨٥هـ)، وقد كان له اثنتان وعشرون داراً وستاناً باعها وأنفقها على الحديث. ويبدو أن الجزء الأكبر من هذه النفقة كان البند المخصص لبناء مجموعات خزانته وهى فى اللغة والغريب، وقد كتبها كلها بخطه.

ولنا أن نقدر حجم المبالغ الهائلة التي رصدها عضد الدولة البويهى (ت سنة ٣٧٢هـ). للإنفاق على خزانة كتبه الخاصة التي أنشأها فى شيراز، وقد كان حريصاً على تحصيل «كل كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها» كما يقول المقدسى.

وهذه الخزانة غير خزانة كتب المارستان العضدى التى تنسب إليه وقد تحمل نفقات إنشائها، وتنظيمها، وإدارتها، وحُجست عليها وعلى المارستان الأوقاف - كما جاء فى المنتظم لابن الجوزى.

## ٢ - وجوه الانفاق (المصروفات) :

### أ- المباني:

كانت خزانة الكتب تحتل جانباً هاماً فى كل قصر ودار. ويرى اسم جعفر البرمكى (ق٢هـ)، وعضد الدولة البويهى (ق٤هـ) بين آخرين ممن اهتموا ببناء القصور والدور وبالغوا فى ذلك. ومن وصف ابن الساعى (فى كتابه نساء الخليفة) لقصر جعفر البرمكى يمكن أن نستنتج مدى ضخامة المبالغ التى أنفقت على قصره، بما فى ذلك خزانة كتبه. يقول ابن الساعى:

«... عمّد جعفر إلى الجانب الشرقى، واتخذ به قصرأ شيد بناءه، وأوسع فناءه وفضاءه، واتخذ منه بستانا ذا رياض مخصبة مريعة، وغرس به من أنواع الشجر ما يثمر بكل ثمرة بديعة، وبالغ فى إنفاق الأموال، وجمع الصناع والرجال...، واتخذ فى هذا القصر ثلاثمائة وستين مرفقاً ما بين مجلس ومستشرف وحجرة وخيش وخزانة».

وكان مقر حكم عضد الدولة البويهى يشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة وداراً، وكانت خزانة الكتب حجرة على حدة فى هذا المقر، وقد اتسعت لعدد هائل من الكتب وخزانة كهذه يصعب تقدير تكاليف مبنائها خاصة وقد كانت جزءاً من مبنى كبير تكلف الكثير.

وفى خلافة المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) افتتحت المدرسة المستنصرية - بما فى ذلك خزانة كتبها - وكان العمل قد بدأ فى بنائها سنة ٦٢٥هـ، وتكامل البناء سنة ٦٣١هـ، وما زال المبنى حتى يومنا هذا شاهداً على عظم الإمكانيات البشرية

والمادية التي سُخِّرَتْ لإنبجاز هذا المبنى الشامخ. وفي عبارة عامة يصف السيوطي نفقات المدرسة ككل بأنه «أمر لم يُسبق إلى مثله».

### بـ. التجهيزات والأدوات:

أورد المؤرخين في هذا المجال صفات عامة ومعلومات توحى في مجملها بعظم هذه المصروفات لتتفق مع عظم النفقات الخاصة بالمباني.

يتحدث ابن الساعي عن تجهيز قصر جعفر البرمكي بالتجهيزات المناسبة وكان من بين مرافقه خزانة أو خزائن الكتب، فيذكر:

«أن جعفرأ قد كتب إلي كل ناحية بأن يتخذ لكل مقصورة فرش على مقادير أبنيتها، ولم يكثف بذلك بل عول على خزائن أمير المؤمنين (هارون الرشيد)، الخاصة بالفرش، لأنه قد (بقى شيء لم يتبها اتخاذها)».

وشكلت الأدوات والتجهيزات الخاصة بصناعة الكتاب، ونسخه، وزخرفته، وتجليده، وصيانته جانباً كبيراً من نفقات هذه الخزائن، وهي غير الأوراق والأقلام وغيرها من أدوات الكتابة التي كانت تقدمها بعض الخزائن لروادها مجاناً خاصة لمن أراد النسخ.

وكذلك شكلت الأدوات الخاصة بإعداد المجموعات وتسجيلها كالفهرسات، والسجلات (الثبوت) والأختام، وغيرها، شكلت جانباً هاماً من مصروفات خزائن الكتب على اختلاف أنواعها وأحجامها.

### جـ. المجموعات:

تدخلت اعتبارات عديدة في تحديد أسعار الكتب، كان من بينها: شهرة المؤلف والناسخ، وأهمية موضوع الكتاب، وحجمه، وندرته، وورق النسخة، وزخارفها، وتجليدها، وغيرها من الاعتبارات.

وبعث الحكم المستنصر بن الناصر الخليفة الأموي في الأندلس (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) في كتاب الأغاني وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق.

وضمت الخزائن - من بين مجموعاتها - العديد من التحف والطرائف (غير الكتب) وهي لا تقدر بثمن، كان منها على سبيل المثال الصورة المأمونية التي عملت للمأمون، وكانت ضمن مقتنيات خزانة كتب المأمون الخاصة - على الأرجح -.

### ٣- الرواتب والمنح والعطايا والخلع:

خُص المشرفون على الخزانة في خزائن الكتب التي اعتمدت أساساً على الأوقاف كمورد مالي بنصيب موفور من هذه الأوقاف. وكان من بين هذه الخزائن خزانة كتب المدرسة المستنصرية.

وفي خزانة كتب المدرسة النظامية كان خازن الكتب أو متولى الكتب يتقاضى راتبه نقداً من الأوقاف الموقوفة على المدرسة، وقد وضع له باني المدرسة راتباً شهرياً قدره عشرة دنانير.

وكان محمد بن عبد الملك الزيات (ت سنة ٢٣٣هـ) ممن نُقلت له الكتب اليونانية، وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه، وكان عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ما يقارب ألفي دينار.

وفاق عطاء المأمون من جاء قبله وبعده من الخلفاء، فقد كان يعطى حنين بن اسحق (ت سنة ٢٦٤هـ) من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللغة العربية مثلاً بمثل، وقد حكى هو نفسه عن الأجر الذي كان يتقاضاه في نقل الكتب بقوله: «كنت إذا نقلت لأحدهم كتاباً أخذت منه وزنه دراهم».

وفضلاً عن الرواتب والمنح والعطايا التي قدمت للعاملين في الخزائن على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم، خلع على بعضهم تقديراً لدورهم.

ففى يوم افتتاح المدرسة المستنصرية قام الخليفة المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) بمنح جميع العاملين فى خزانة الكتب خلعاً، بما فى ذلك المناول.

#### هـ- المصروفات الأخرى:

التزمت بعض الخزائن بكافة المصروفات الخاصة بالإقامة الدائمة أو شبه الدائمة فى الخزانة، والتفرغ لطلب العلم، أو الانقطاع للعمل، ومن هذه المصروفات نفقات المبيت والمأكل والمشرب، وغير ذلك من مستلزمات الإقامة.

وتعهدت بعض الخزائن بتقديم كافة المساعدات المالية للطلاب خاصة الغرباء والفقراء. كما أفاد العديد من الطلاب ورواد الخزائن والعاملين بها من الرعاية الطبية، والعلاج المجانى الذى كانت تقدمه بعض المدارس.

ونورد فيما يلى بعض النماذج والأمثلة عن الخزائن التى تحملت هذا النوع من المصروفات:

١ - بيت الحكمة: كان لهذه الخزانة فضل السبق فى مجال تقديم التيسيرات الخاصة بالانقطاع أو التفرغ. ويرد اسم محمد بن موسى الخوارزمى (ت سنة ٣٨٣هـ) كواحد من العلماء الذين انقطعوا إلى هذه الخزانة.

٢ - خزانة الحكمة بكرمر: كان الناس يقصدونها من كل بلد، فيقيمون فيها، ويتعلمون، وكانت الصيانة مشتملة عليهم، والنفقة فى ذلك من مال على ابن يحيى المنجم (ت سنة ٢٧٥هـ).

٣ - دار الكتب بالبصرة: قدمت الرواتب (المساعدات المالية) لمن قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها.

٤ - خزانة كتب الحديث: تحملت نفقات تقديم أدوات الكتابة كالورق والأقلام والأحبار مجاناً لروادها.

٥ - خزانة كتب المدرسة المستنصرية: كان العاملين بالخزانة ضمن من أظلتهم مظلة الرعاية الصحية والطبية من العاملين بالمدرسة.

## رابعاً: العاملون

اكتسبت خزائن الكتب على اختلاف أنواعها وأحجامها وتبعياتها سمعة طيبة بفضل العاملين بها من كبار الأدباء والعلماء وغيرهم. وقد اجتمع في بعض الخزائن - خاصة كبيرة الحجم - العديد من العاملين الذين يمثلون الفئات أو المستويات التالية:

### ١ - المستوى الأول:

وهو الخاص بالوظائف الإدارية العليا، ويقتصر على وظيفة الوكيل، ويعين من قبل صاحب أو مؤسس الخزانة للقيام بكافة الواجبات ذات الصلة بالمتابعة والتقويم وغيرها. ومن أشهر الوكلاء وأقدمهم ذكراً في المصادر التاريخية وإن لم نقف على اسمه تحديداً، الوكيل الذي عينه عضد الدولة البويهى على خزانة كتبه الخاصة بشيراز.

### ٢ - المستوى الثانى:

وهو خاص بوظيفة الخازن، وهى الوظيفة الأولى والأساسية فى جميع خزائن الكتب. وقد عد الخازن مسؤولاً عن الخزانة إدارياً وفنياً، ويعاونه فى أداء واجباته فئات عديدة من الاختصاصيين الفنيين والمساعدين وغيرهم. وقد اشتهرت وظيفة المشرف من بين هذه الوظائف المساعدة.

واكتسبت خزائن الكتب العباسية سمعة طيبة بفضل خزنتها ومساعدتهم أو نوابهم، وما تحلوا به من صفات وأخلاق حميدة، وقد التزموا بقواعد وآداب أخلاقية تحدد واجباتهم ضماناً لعدم تضييع حق الله تعالى، وحقوق العباد، وهذا فضلاً عن مكانتهم العالية بالمجتمع، وخبرتهم العريضة.

ولأهمية وظيفة الخازن أو متولى الكتب، فقد كان الخليفة فى بعض الأحيان يتولى تعيينه، واختياره من بين كبار العلماء والأدباء، وذوى الدراية والمعرفة بالكتب، ومن هؤلاء على سبيل المثال: أبو سهل الفضل بن نوبخت وهو أول خازن للكتب فى الدولة العباسية، وقد ولاه الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) القيام بخزانة كتب الحكمة.

وحفظت لنا المصادر التاريخية أسماء وتراجم العديد من الخزنة، نذكر منهم على سبيل المثال:

أ - سهل بن هارون (ت سنة ٢١٥هـ)، وقد اتصل بخدمة الرشيد، والمأمون الذى جعله كاتباً على خزائن الحكمة.

ب - أحمد بن مسكويه (ت سنة ٤٢١هـ)، وكان قيماً على خزانة كتب ابن العميد، ثم عضد الدولة البويهى، ثم اختص بيهاء الدولة البويهى.

ج - الشمس على بن الكتبى (ق ٧هـ)، وهو أول خازن للمدرسة المستنصرية. وكمساعداً للخازن، كان المشرف يتولى مهام الإشراف والنظر فى أمور الخزنة، ومراعاتها، والاحتياط عليها، والعناية بها. ومن أشهر هؤلاء نذكر:

أ - الشريف أبو الحسن محمد بن أبى شيبة (ق ٤ / ٥هـ)، وكان مشرفاً على دار العلم ببغداد.

ب - أبو جعفر عمر الدباس (ت سنة ٦٠١هـ)، وكان مشرفاً بدار الكتب العتيقة بالمدرسة النظامية.

ج - العماد على بن الدباس (ت سنة ٦٣١هـ)، وكان أول مشرف فى خزانة كتب المدرسة المستنصرية.

### ٣ - المستوى الثالث:

ويختص بجميع الفئات الفنية، ومن وظائفه: اختصاصيو التزويد، واختصاصيو التنظيم، والمترجمون (النقلة).

### أ. اختصاصيو التزويد:

فى خزائن الكتب الكبيرة كبيت الحكمة اختص بعض العاملين باختيار الكتب، وتزويد خزانة كتب الدولة بها، وذلك بالإضافة إلى أعمالهم الأساسية، وقد كان منهم الخازن والمترجم، وغير ذلك. ولعظم هذه المسئولية فقد كان يتم تكليف بعض كبار العاملين بها، وأمر مباشر من الخليفة. ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال: الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم «صاحب بيت الحكمة»، ويوحنا ابن ماسويه، وحنين بن اسحق.

ونهج كبار رجالات الدولة من علماء وأدباء وغيرهم نهج الخلفاء، فتناهاها فى طلب الكتب، وأنفذوا إلى بلاد الروم وغيرها من أخرجها إليهم.

### ب. اختصاصيو التنظيم:

وقد تكفلوا بالقيام بكافة الأعمال التنظيمية كإعداد الفهرسات، وترتيب المجموعات، وما يتصل بذلك من إجراءات كالتسجيل والختم وغيرها. ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال:

– الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحریم (ت سنة ٦٣٧هـ)، وكان من العاملين غير المتفرغين فى خزانة كتب المدرسة المستنصرية.

– العدل ضياء الدين أحمد الخازن (ت سنة ٦٤٠هـ)، وهو ولد الشيخ عبد العزيز – سالف الذكر – وكان خازنا بخزانة كتب الخليفة المستنصر (٦٢٣ – ٦٤٠هـ).

– الشيخ شمس الدين على بن النيار (ق ٧هـ)، وكان ذا خبرة ودراية فى مجال تنظيم المجموعات. ويذكر ابن الفوطى أن الخليفة المستنصر (٦٤٠ – ٦٥٦هـ) آخر خلفاء الدولة العباسية قصد المدرسة المستنصرية ومعه الشيخ شمس الدين، واعتبر خزانة الكتب التى بها وأطلع على نظامها وترتيبها، وأنكر عدم ترتيبها، فوكل بالنواب يومين، ثم أفرج عنهم.

### جـ- المترجمون (النقلة):

تفرغ بعض العلماء وانقطعوا في بعض خزائن الكتب للترجمة، خاصة من كان متقناً اللغات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية، فضلاً عن اللغة العربية، وكان يساعدهم كتاب ومساعدون حذاق.

واختص بعض هؤلاء النقلة بخدمة الخلفاء وكبار رجالات الدولة وكان مقر عملهم ونشاطهم خزانة كتب الدولة، وبعض خزائن الكتب الخاصة. واشتهر من هذه الفئة:

- ابن المقفع (ت سنة ١٤٥ هـ)، وهو الذي مهد - في خلافة المنصور - لترجمة الكثير من الكتب الفارسية إلى العربية.

- جورجوس بن جبرائيل بن بختيشوع (ت سنة ١٥٢ هـ)، واختص بالمنصور، ونقل له كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية.

- يوحنا بن ماسويه (ت سنة ٢٤٣ هـ)، وقد ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة، ووضعه أميناً على الترجمة، ورتب له كتاباً يكتبون بين يديه.

- حنين بن اسحق (ت سنة ٢٦٠ هـ)، وكان أعلم زمانه باللغات اليونانية، والسريانية، والفارسية، والعربية، وكان له كتاباً عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا.

#### ٤ - المستوى الرابع:

ضمت هذه الفئة النساخ والخطاطين والمجلدين وغيرهم ممن اتخذوا الوراقة حرفة لهم. وكان البعض منهم يعمل لحسابه الخاص داخل الخزائن، والبعض الآخر يعمل لحساب أصحاب الخزائن في مقابل ما يجرى عليهم من أرزاق.

ونورد فيما يلي أشهر هؤلاء وأقدمهم ذكراً:

- إعلان الشعوبى (ق ٢ / ٣هـ)، وكان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد، والمأمون، والبرامكة. وقد جمع بين عمله هذا ودكانه الذى يبيع فيه الكتب وينسخها.

- أبو الحسن على بن هلال، المعروف بابن البواب (ت سنة ٤١٣هـ)، وقد غالى الناس فى إحراز ما تُسَطَّرُهُ أنامله من بدائع الخط المنسوب، وإليه رُدُّ أمر خزانة كتب بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهى.

- ابن أبى الحريش (ق ٢ / ٣هـ)، وهو أول من اشتهر بصناعة التجليد فى خزائن الكتب العباسية، وكان يجلد فى بيت الحكمة فى خلافة المأمون.

#### ٥ - المستوى الخامس:

ويقتصر على فئة المناولين، وهى درجة أعلى بقليل من الخدم، وقد احترف هذا النوع من العمل بعض الجوارى والغلمان.

وتتحدث توفيق السوداء عن عملها كمناولة بقولها: «... أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد... وكنت أُخرج الكتب إلى النساخ».

وغير توفيق، اشتهر:

- الجمال بن ابراهيم بن حذيفة، وهو أول مناول إلتحق بالخدمة فى خزائن كتب المدرسة المستنصرية.

- محمد بن سعيد بن محمد بن أبى المنجم الحدادى، وكان ممن إلتحق للعمل فى الخزانة سالفة الذكر.

#### ٦ - المستوى السادس:

تضم هذه الفئة البوابين، والخدم، والجوارى، والفراشين، والطباخين، وغيرهم ممن ألقى عليهم مهام خدمة رواد الخزائن والعاملين بها، فضلاً عن العناية بالمرافق

الأخرى الملحقه بالخزائن، أو التي تتبعها الخزانة، كما في المؤسسات التعليمية كالمدارس ودور العلم، وغيرها.

ومن فئة الخدم، يرد ذكر البواب والفراشين في حديث ابن الفوطى بالحوادث الجامعة (سنة ٦٤٥هـ)، وقد تعرضت خزانة كتب المدرسة المستنصرية للسرقه فأنهى ذلك إلى الخليفة المستعصم بالله الذى أمر بالتحقيق، ولما لم يجدوا شيئاً من المسروقات تقدم الخليفة وأمر بتقسيط قيمة المسروقات على البواب بالخزانة والفراشين على قدر أحوالهم، فاستوفى ذلك منهم ورتب عوض ما سرق.

### خامساً: المجموعات

انطلاقاً من حب القرآن الكريم الذى وُلد حب الكتب تنافس بنو العباس فى جمع الكتب وبناء مجموعاتهما، وتباهوا بكثرة عددها وتنوع موضوعاتها ولغاتها.

وعلى الرغم من أن بعض الكتاب والمؤرخين قد حدد مجموعات بعض الخزائن بالأرقام، إلا أن البعض الآخر قد وصفها بصفات عامة، وغير دقيقة «كالكثرة»، وصفات مبالغ فيها فى بعض الأحيان «كتجاوز حد الكثرة»، و«ما لا يحصى كثرة» وغيرها من الصفات الدالة على حب الكتب والتنافس فى جمعها، والتباهى بكثرتها.

وبصفة عامة يمكن تقسيم مجموعات خزائن الكتب العباسية بحسب حجم المجموعات إلى ثلاثة أقسام أو أحجام، كما يلي:

أ- خزائن كبيرة الحجم: وتبلغ مائة ألف أو تزيد، ومنها خزانة كتب الصحاب بن عباد التى اشتملت على مائتين وستة آلاف مجلد.

ب- خزائن متوسطة الحجم: وتبلغ عشرات الآلاف، ومنها خزانة كتب المدرسة المستنصرية، التى بلغ عدد مجلداتها ثمانين ألف مجلد.

جـ - خزائن صغيرة الحجم: وتقل عن عشرين ألفاً، وهذه أكثر من أن تُعد وتخصى.

وكما وصفت المجموعات بالكثرة والضخامة فقد وصفت كذلك في بعض الأحيان بكثرة عدد النسخ من الكتاب أو العنوان الواحد، فقد ذكر الجاحظ (ت سنة ٢٥٥هـ) أنه «ما كان في خزانة يحيى البرمكي (ت سنة ١٩٠هـ)، وبيت مدارسه كتاب إلا وله ثلاث نسخ».

وفضلاً عن الكثرة - وهذا معيار كمي - وصفت مجموعات كثير من الخزائن بالحسن، والجودة، والنفاسة، والندرة، والطرافة، وغيرها من الصفات الدالة على قيمتها وأثرها في إثراء الحياة الفكرية - وهذا معيار نوعي -.

وبالإضافة إلى الكتب أو الدفاتر، وهي الشكل التقليدي والشائع في الخزائن، فقد ضمت بعض هذه الخزائن ضمن مقتنياتها أشكالاً أخرى، كالخراطم والصور وأدوات اللعب كالشطرنج، وغير ذلك، وكان من بين هذه الأشكال أو المواد مفردات ذات قيمة وأهمية خاصة.

ونشير فيما يلي إلى بعض الخزائن التي اقتنت مواد ذات قيمة خاصة، ومعظم هذه الخزائن خاصة بالخلفاء والوزراء وكبار رجالات الدولة وغيرهم، وقد أتاح لهم نفوذهم وثراؤهم الحصول على مثل هذه المواد:

١ - خزانة كتب الخليفة المأمون الخاصة: وكان بها الصورة المأمونية التي اجتمع على صنعها عدة من الحكماء، وصوروا فيها العالم بأفلاكه، ونجومه، ويره، وبحره، وعامره، وغامره، ومساكن الأمم، والمدن، وغير ذلك.

٢ - خزانة كتب محمد بن عبد الملك الزيات (ت سنة ٢٣٣هـ): وكانت بها نسخة من كتاب سيبويه أهداها الجاحظ إلى ابن الزيات، وكانت بخط

الفراء، ومقابلة الكسائي، وتهذيب الجاحظ، وقد وصفها ابن الزيات بأنها: «أجل نسخة توجد وأعزها».

٣ - خزانة كتب الخليفة الراضى بالله (٣٢٢ - ٣٢٩هـ): وكان من الطوائف التى ضمتها الكتاب الذى ورد من ملك الروم إلى الراضى بالله سنة ٣٢٦هـ وفيه يطلب الهدنة، وكانت الكتابة بالرومية (بالذهب)، والترجمة بالعربية (بالفضة).

٤ - خزانة كتب المدرسة المستنصرية: اقتنت «كتاب الياسة» أو «اليسق» ويتضمن القوانين التى وضعها جنكيز خان لقومه، وضمنها النواهى والزواجر، وقد كتبت فى صفائح الفولاذ.

ولم يترك بنو العباس لساناً من ألسن الأمم المعروفة فى عصرهم إلا ونقلوا عنه، وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية، وقد أخذوا من كل أمة أحسن ما عندها.

وفى خلافة بنى العباس ظهر نوعان من العلماء، الأول منهم يغلب على ثقافتهم طابع النقل ويسمون أهل العلم، والثانى يغلب على ثقافتهم طابع الابتداع ويسمون أهل الحكمة. وقد انعكس ذلك على تسميه خزائن الكتب وموضوعات مجموعاتها، فخزائن أو بيوت الحكمة هى تلك التى يغلب على مجموعاتها طابع الحكمة أى الفلسفة بمعناها الواسع والذى يشمل الفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والرياضيات وغيرها، وخزائن أو دور العلم هى التى يغلب عليها وعلى مجموعاتها طابع العلم، أى كل ما له صلة بالكتاب والسنة. أما دور الكتب فهى التى تجتمع بين كتب الحكمة والعلم.

وفى بناء مجموعاته فتح بيت الحكمة أبوابه للكتب الوافدة من فارس، والهند، وبلاد الروم، وقد فتح الباب على مصراعيه فى خلافة المأمون، ونتج عن ذلك ازدياد حجم الكتب العقلية أو الدخيلة زيادة كبيرة.

ويتحدث ابن نباتة عن تفاصيل وظروف إرسال هذه الكتب بقوله:

«لما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرص أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطراناً واحداً، وقال: «الرأى أن تعجل إنفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها»، فأرسلها إليه، واغتبط بها المأمون، وجعل سهل بن هارون خازناً لها».

وفى رواية مماثلة لما أورده ابن نباتة، يذكر القفطى هذه العبارة: «... سيرها - أى الكتب التى طلبها المأمون - فإنك تثاب عليها، فإنها ما دخلت فى ملة إلا وزلزلت قواعدها».

ومع دخول هذه العلوم العقلية الوافدة وتدققها إلى بيت الحكمة وغيرها من خزائن الكتب تحققت نبؤة المطران. ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد تسابق كبار رجالات الدولة العباسية والأغنياء من العلماء والأدباء فى مجال بناء مجموعاتهم الخاصة من الكتب العقلية، وظهر إلى حيز الوجود (ق ٣هـ) أول خزانة كتب عامة ترفع الحكمة شعاراً لها وتتخذها اسماً، وهى خزانة الحكمة بكرر.

وفى معجمه للأدباء يتحدث ياقوت الحموى عن أحد رواد هذه الخزانة العامة بقوله:

«قدم أبا معشر المنجم من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شئ من النجوم، فوصفت له الخزانة فمضى وراها، فهاله أمرها، فأقام بها، وأضرب عن الحج، وتعلم فيها النجوم، وأعرق فيها حتى الحد، وكان ذلك آخر عهده بالحج، وبالدين، وبالإسلام أيضاً».

## سادساً: النظم والاجراءات الفنية

### ١ - التزويد (مصادره):

تعددت مصادر التزويد فى خزائن الكتب العباسية فكانت الكتب وغيرها ترد إلى هذه الخزائن عن طريق: الشراء، والوقف والإهداء، والتأليف، والترجمة، والنسخ.

ونتناول فيما يلى كل مصدر من هذه المصادر على حدة:

أ- الشراء: ويمثل المصدر الرئيسى لتزويد الخزائن، خاصة خزانة كتب الدولة، والخزائن الخاصة، ومنها خزائن كتب الخلفاء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة.

وفى الحديث عن الآداب مع الكتب التى هى آلة العلم يوصى ابن جماعة طالب العلم «بأن يعتنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراء وإلا فإجارة، أو عارية...، وإذا أمكن تحصيلها شراء لم يشتغل بنسخها، ولا ينبغى أن يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه».

وشهدت أسواق الكتب العباسية فئة من فئات الوراقين تخصصت فى الدلالة، أى الترويج والدعاية للمكتب، وقد عرفت هذه الفئة بدلالى الكتب، وكان من بينهم العالم والأديب، وكان لهذه الفئة أخلاقياتها، فقد كان من حق الدلال «ألا يبيع كتب الدين لمن يعلم أنه يضيعها، أو ينظرها لانتقادها، والظعن عليها، وألا يبيع شيئاً من كتب أهل البدع والاهواء، وكتب المنجمين، والكتب المكذوبة، ولا يحل له أن يبيع كافرأ لا المصحف ولا شيئاً من كتب الحديث والفقهاء».

واستأجر بعض العلماء من ينادى له على كتاب أرهقه البحث عنه فى أسواق الوراقين. ومن هؤلاء العلامة أبو بكر بن الأخشاد الذى استأجر منادياً - عندما خرج حاجاً إلى مكة - لينادى فى عرفات، يسأل الناس عن «كتاب الفرق بين

النبي والمنتبى»، للجاحظ، ولم يعثر على أثر للكتاب بالرغم من أن الحشد فى عرفات عظيم.

وبسبب الوفاة أو ضيق ذات اليد، أو غير ذلك من الأسباب اضطر بعض العلماء أو الأدباء أو غيرهم إلى بيع كتبهم أو جانب منها فى سوق الوراقين. ومن هؤلاء ابن حمدون الكاتب (سنة ٦٠٨هـ) الذى تقاعد الدهر به، وبطل عن العمل فأخرج كتبه وباعها وعيناه تذرفان الدموع كالمفارق أهله، والمفجوع بأحبائه، وكانت نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقها فى تحصيلها.

ب- الوقوف: ارتبط وقف الكتب كمصدر من مصادر التزويد بنظام الوقف بصفة عامة، فكان هناك من يقف الأرض والمبنى بما فى ذلك الأثاث والتجهيزات، والمجموعات، فضلاً عن تقديم الرواتب للعاملين بالخزانة، وكان هناك من يقف الكتب، كل حسب إمكاناته.

ووقف الكتب يعنى أنه لا يجوز التصرف فيها بعد وقفها بأى حال من الأحوال، سواء أكان ذلك بالبيع، أم الشراء، أم الإهداء، أم غير ذلك من أنواع التصرف.

وباستثناء بيت الحكمة، وخزائن كتب الأفراد، يمكن القول أن معظم خزائن الكتب الأخرى قد قامت على قاعدة الوقف، إنشاءً وتمويلًا وصيانةً.

ويرد اسم الفقيه الشافعى أبو القاسم جعفر بن محمد الموصلى (ت سنة ٣٢٣هـ) على رأس قائمة رجالات الخير فى مجال وقف الكتب، وقد أسس داراً للعلم بالموصل، وألحق بها خزانة كتب من جميع العلوم، وقفاً على كل طالب علم.

وغُصت بيوت الله فى الأرض (المساجد) بالكتب الموقوفة، وتنافس المسلمون وتسابقوا فى وقف الكتب الشرعية، وعلى رأسها المصاحف الشريفة، وقد تفتنوا فى كتابتها وتجليدها وزخرفتها.

جـ- الإهداء: شكلت الكتب التي قدمت كهدايا إلى الخزانين جانباً كبيراً وهاماً من مقتنيات هذه الخزائن، وإن لم تصل في حجمها إلى حجم الكتب المشتراة أو الموقوفة، وكان من بين هذه الكتب ما يمثل قيمة فنية أو علمية كبيرة.

يذكر ياقوت الحموي في ترجمة ولي الدولة أحمد بن علي بن خيران الكاتب، صاحب ديوان الإنشاء بمصر (ت سنة ٤٣١هـ) «أن ابن خيران سلم إلى أبي منصور بن الشيرازي رسول ابن النجار إلى مصر من بغداد جزء من شعره ورسائله، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القاسم (المشرف على دار العلم ببغداد آنذاك)، وغيره مما يأنس به من رؤساء البلد، ويستشير في تخليدهما دار العلم، لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه ارتضى واستجيد».

ويؤكد هذا النص وجود ما نطلق عليه اليوم الخبراء والمستشارين الذي يستأنس برأيهم ومشورتهم في المسائل ذات الصلة بتطبيق نظم وسياسات المكتبة، ومنها نظام وسياسة التزويد، كما يوحى إلينا بالإجراءات المتبعة في مثل هذه الحالات.

وضمت خزانة كتب الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) رُقبة تجبس السم عن الملسوع، وكان المعتضد قد أمر لصاحبها بجائزة سنوية بعد أن جاءه بها، وقد نجح في تطبيقها على ملسوع، وأمر كذلك بكتابتها وتخليدها في خزانة كتبه.

٥- التاليف: لأن العصر عصر تأليف وترجمة فقد تحولت بعض الخزائن إلى مجتمعات علمية - بمفهومنا المعاصر - وكانت تضم العديد من كبار العلماء والأدباء، وكان جل همهم - وقد تفرغ بعضهم - القيام بأعمال التأليف والترجمة بناء على أوامر وتوجيهات خليفية ووزارية، وقد شجعهم على الاستمرار في العطاء والانتاج العلمي ما توافر لهم من التشجيع المادي والأدبي.

وصنف كثير من المؤلفين العديد من المؤلفات لتضاف إلى رصيد خزائن بعينها، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال:

- إبراهيم بن السرى بن سهل المعروف بالزجاج النحوى (ت سنة ٣١١هـ) الذى فسر كتاب جامع النطق بخط الترمذى الصغير أبو الحسن، وجلده وحمله إليه، ولم يحمل مما عمله إلى أحد إلا خزانة المعتضد ووزيره، وقد أمر المعتضد للزجاج بثلاثمائة دينار.

- جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع، وكان منقطعاً لإسماعيل بن عباد المعروف بالصاحب (ت سنة ٣٨٤هـ)، وقد صنف له كتاباً يختص بذكر الأمراض التى تعرض من الرأس إلى القدم، فوصله بشئ قيمته ألف دينار.

هـ - الترجمة: سارت الترجمة فى خط مواز لخط التأليف ونشطت وازدهرت وبلغت أوج ازدهارها فى خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) وتشجيع ودعم أدبى ومادى من الخلفاء وغيرهم من كبار رجالات الدولة، وبعض الأثرياء من العلماء والأدباء نشط المترجمون وأقبلوا على ترجمة الكتب من اللغات الأجنبية المعروفة آنذاك إلى اللغة العربية، ولم يتركوا موضوعاً من موضوعات المعرفة البشرية إلا وترجموا فيه، ونقلوا عنه، وأضافوا إليه.

وكما ارتبط وقف الكتب كمصدر من مصادر التزويد بنوع خاص من خزائن الكتب، وهى خزائن الكتب العامة، والخزائن الملحقة بالمساجد والمدارس والربط والبيمار ستانات وغيرها، فقد ارتبطت الترجمة كذلك بنوع خاص من خزائن الكتب وهى خزائن الكتب الخاصة، فضلاً عن بيت الحكمة (خزانة كتب الدولة)، وربما كان ذلك بسبب ما تتكلفه الترجمة من نفقات فى جلب الأصول الأجنبية ودفع أجور المترجمين وأتعاب النساخ.

و- النسخ: ولتزويد خزائن الكتب بالإنتاج الفكرى الذى لا يتوقف والذى تجود به

قرائح المؤلفين والمترجمين كان عمل النساخ داخل خزائن الكتب لا يتوقف، فقد كانوا يعملون ليل نهار.

وكما قاد بيت الحكمة حركة التأليف والترجمة في الدولة العباسية، فقد قاد كذلك وبنجاح ما يمكن أن نطلق عليه حركة النشر، وقد توافر له الدعم الأدبي من الخلفاء، والمادى من خزانة الدولة.

وكما اختص بعض النساخ بنسخ الكتب العربية، فقد كان البعض الآخر يختص بنسخ الكتب المترجمة، ومن هؤلاء الفريق الذى رتبته الرشيد للعمل تحت إمرة يوحنا بن ماسويه أمين الترجمة فى بيت الحكمة.

وإذا كانت هناك خزائن اعتمدت على الشراء أو الوقف كمصدر وحيد لبناء مجموعاتها، فقد اعتمدت بعض الخزائن على النسخ كمصدر وحيد لبناء مجموعاتها، ومنها خزانة كتب إبراهيم بن اسحق الحربى (ت سنة ٢٨٥هـ)، وقد بلغت مقتنياتها إثنى عشر ألف جزء لغة وغريب كتبها كلها بخطه.

## ٢ - التنظيم والإعداد:

كانت مجموعات الخزائن على درجة عالية من التنظيم، خاصة مجموعات الخزائن الكبيرة، وكان الهدف الأساسى للتنظيم هو سهولة تناول المجموعات واستخدامها.

وكما كان هناك اهتمام بتزويد الخزائن بكل غالٍ ونفيس فقد كان هناك اهتمام مواز بتنظيم هذه الخزائن، «ليسهل تناولها، ولا يتعب مناولها» كما يقول ابن الفوطى فى حوادثه الجامعة.

وتتناول فيما يلى كافة الإجراءات المادية والفنية، والنظم المستخدمة فى إعداد وتنظيم المجموعات:

أ- التسجيل: تبدأ الإجراءات المادية الخاصة بإعداد الكتب للتداول بتسجيل هذه الكتب فى سجلات خاصة أعدت لهذه الغاية بقصد إثبات ملكية الخزانة لها، وكان سجل الكتب يعرف بالثبث.

وضمن إجراءات التسجيل، كان يتم وضع علامات على الكتب أو أختام لإثبات ملكيتها للخزانة، ومن هذه العلامات أو الأختام علامة المأمون.

وفى بعض الأحيان كان يكتب اسم الواقف على الكتب لإثبات الملكية الأصلية للكتب - قبل الوقف - وما زال هذا الإجراء متبعاً حتى اليوم، خاصة فى المكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع.

ب- الفهرسة: الفهرسة هى العملية الأولى التى يتولى القيام بها اختصاصيو التنظيم فى الخزائن، وإذا كانت الثبوت أو السجلات قد أعدت لإثبات ملكية الخزانة لمجموعاتها من الكتب، فإن الفهرستات كانت تعد لتيسير استخدام هذه المجموعات من الكتب والوصول إليها بسهولة من قبل المستفيدين، فضلاً عن العاملين.

ومن أقدم الفهرستات ذكراً فى المصادر فهرست خزانة كتب المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ). ويرد ذكر هذا الفهرست على لسان الحسن بن سهل، الذى يقول:

«دعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه، فلم ير لهذا الكتاب ذكر [كتاب جاويدان خرد أى يتيمة السلطان] فقال: كيف سقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست».

ويحدد ياقوت الحموى عدد مجلدات فهرستات خزائن كتب الصاحب بن عباد (ت سنة ٣٨٤هـ) بقوله: «كانت تقع فى عشر مجلدات».

ويتحدث المقدسى عن فهرستات خزانة كتب عضد الدولة البويهى (ت سنة ٣٧٢هـ) بقوله: «كان لكل نوع [من الكتب] بيوت وفهرستات «فيها أسامى الكتب». ومن هذه العبارة نستنتج أن:

- ١ - الفهرستات المستخدمة في هذه الخزنة كانت موضوعية.
- ٢ - أن المداخل الرئيسية فيها كانت بأسماء أو عناوين الكتب.
- ٣ - العلاقة بين نظام التصنيف المستخدم، والفهرستات المستخدمة فقد كان لكل نوع من الكتب بيت أو مكان خاص، وفي هذا البيت فهرست خاص كذلك، فيه بيان بأسماء الكتب.

وبالإضافة إلى الفهرست الموضوعي، خصصت بعض الخزائن فهرست لمؤلفات عالم أو أديب بعينه. وكان ذلك يتوقف على اعتبارات عدة من أهمها مكانة هذا العالم أو الأديب، وحجم إنتاجه، ونوعه، وأثر هذا الإنتاج وقيمه.

ويرد ذكر هذا النوع من الفهرستات في حديث ياقوت الحموي عن فهرستات خزنة كتب جامع مرو (ق ٧هـ) فيذكر أنه كان من بين هذه الفهرستات فهرس خاص بمؤلفات البيروني رآه ياقوت، وكان عن كتب البيروني في علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة، والتي كانت تفوق الحصر، وقد كتبت في ستين ورقة بخط مکتنز.

جـ - التصنيف: يقصد به تجميع الكتب المتشابهة، أي ذات الموضوع الواحد، في مكان واحد، تسهيلاً لتناولها من قبل المستفيدين، فضلاً عن العاملين - خاصة المناولين -.

ويبدو أن كلمة «تصنيف» لم تكن مستخدمة في الخزائن، وإن استخدمت كلمات بديلة توحى بنفس المعنى كالترتيب أو التنظيم أو الاعتبار، أو تفصيل الفنون أو العلوم، أو غير ذلك.

ولم تفصح المصادر عن وجود نظام أو نظم خاصة للتصنيف تم تطبيقها أو استخدامها - بشكل عملي - في الخزائن لتنظيم مجموعاتها، وإن عجت المصادر بالحديث عن الكتب التي تصنف العلوم - بشكل نظري - مثل:

- إحصاء العلوم للفارابي (ت سنة ٣٣٩هـ).

- ومفاتيح العلوم للخوارزمي (ت سنة ٣٨٧هـ).

ويعكس كتاب مفاتيح العلوم - على سبيل المثال - نظرة بعض علماء العصر ومنهم الخوارزمي للعلوم، وتعاملهم معها، وتنظيمهم لها، خاصة وقد عاش بنيسابور في بلاط السامانيين، ومن المحتمل أن يكون قد استخدم نظامه لتصنيف العلوم في تصنيف أو تنظيم خزانة كتب السامانيين.

وقد جعل الخوارزمي كتابه على مقالتين، إحداهما لعلوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية، والثانية لعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم. وهذا التقسيم يمثل نظرة العلماء آنذاك لعلوم العصر العباسي التي تم تقسيمها إلى علوم شرعية (نقلية)، وهي العلوم العربية، وأخرى قديمة (عقلية)، وهي علوم اليونانيين وغيرهم.

وابتكر البعض أساليب جديدة في تصنيف الكتب وترتيبها على الرفوف، ومن هؤلاء أبو بكر الصولي (ت سنة ٣٣٥هـ) فقد كان له بيت عظيم مملوء بالكتب، وكانت جلود الكتب مختلفة الألوان، لكل صنف منها لون، فصنف أحمر، وآخر أخضر، وغير ذلك.

ومثل هذا الأسلوب في الترتيب أو التنظيم كان يتطلب تحديد موضوعات الكتب في الخزانة، وعلى ضوء ذلك يتم تحديد عدد الألوان المطلوب استخدامها، بحيث يخصص لكل موضوع لون خاص، وبالتالي مكان خاص.

٥- التكهيب: لم يكن هذا المصطلح مستخدماً في العصر العباسي، وقد استخدم هنا للدلالة على الاجراء التنظيمي الذين يسبق وضع الكتب على الرفوف أى تنزيدها. وبمقتضى هذا الاجراء كان اسم الكتاب يكتب عليه من الخارج «في جانب آخر الصفحات من أسفل»، وكان يراعى أن تكون

البسمة (أول الكتاب) إلى أعلى، وأن يكون ما يطلق عليه اليوم كعب الكتاب جهة اليمين.

ولأن الكتب تنضد بشكل أفقى فوق بعضها البعض فقد كانت كتابة العنوان تظهر بشكل واضح، وفي اتجاه واحد. ويبدو أن طول عناوين الكتب فى معظم الأحيان قد حال دون كتابة بيانات أخرى على حواف الصفحات من أسفل، كإسم المؤلف.

هـ- التنضيد: كإجراء مادى أخير تأخذ الكتب مكانها فى بيوتها على الرفوف، وهو ما كان يعرف بالتنضيد. والتنضيد من نضد، ونضد الشيء جعل بعضه على بعض متسقاً يقول ابن منظور فى لسانه. والتنضيد بهذه الكيفية يخالف ما هو متبع الآن، فالكتب تنضد أو ترتب اليوم بشكل رأسى وليس أفقياً.

وكان الخازن يتولى عادة القيام بمهمة التنضيد فى الخزائن صغيرة الحجم. أما الخزائن المتوسطة والكبيرة فقد كان هناك من يتولى القيام بهذه المهمة نيابة عن الخازن، ومن هؤلاء النواب (المساعدون)، والمناولون.

وكانت هناك قواعد وآداب للتنضيد، منها ما ذكره ابن جماعة بقوله: «يراعى الأدب فى وضع الكتب باعتبار علومها، فيضع الأشرف أعلى الكل، فإن استوت فى فن فليراع شرف المصنف فيجعله أعلى، ثم يراعى التدرج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلى الكل، ثم كتب الحديث الصرف... ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب... [الخ]، ولا يضع ذات القطع الكبير فوق ذوات الصغير كيلاً يكثرتساقطها».

ومن حديث ابن جماعة نقف على ما يأتى:

١ - كان لكل شىء فى الخزائن آداب حتى التنضيد.

٢ - العلاقة الوثقى بين التنضيد والتصنيف أو الترتيب عموماً، وكيف أنهما أسساً على فلسفة ونظام دقيق.

٣ - أن العلوم والمعارف قد تم تصنيفها وترتيبها حسب شرفها ومنزلتها، كما تم حصر المصنفين (المؤلفين) وتصنيفهم حسب شرفهم ومنزلتهم.

٤ - لم تغفل القواعد الخاصة بالتنضيد الإجراءات العملية البسيطة ومنها طريقة تنضيد الكتب حسب أحجامها، حرصاً على سلامتها، وسلامة من يتعامل معها.

و- الجرد: الجرد من الألفاظ المستخدمة حديثاً، وفى العصر العباسى اتسعت كلمة أو لفظ «الاعتبار» لتحتوى كل ماله صلة بالكتب، والنظر فيها بقصد تقويمها أو ترتيبها أو جردها، أو غير ذلك.

وكان جرد محتويات خزانة الكتب من بين واجبات الخازن، ويدخل ضمن ذلك جرد الودائع والرهون وغيرها. ويتحدث ابن الجوزى عن الجرد كواجب من واجبات الخازن بقوله:

«... وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها، معارضاً ذلك بفهرسته متطلباً ما عساه قد شذ (بمعنى تفرق أو افترق) منها».

ومن حديث ابن الجوزى - رغم إيجازه - نقف على اجراءات الجرد، وخطواته، والأدوات المستخدمة فيه، ومنها الثبوت (السجلات)، والفهرستات.

ز- الصيانة: اتسع مفهوم صيانة المجموعات - كإجراء مادى وفنى - ليشتمل كافة العمليات المادية والاجراءات الفنية الخاصة بحفظ الكتب وغيرها من المواد فى حالة مادية مناسبة تمكنها من أداء المهام التى نيظت بها. ومن هذه العمليات والاجراءات نذكر: التجليد - الترميم - التنظيف - التبخير - الحفظ فى خزائن مغلقة.

وقد كان هناك حرص بالغ في التعامل مع الكتب، يؤكد ذلك ما جاء في حديث ابن جماعة عن نسخ الكتب، أو مطالعتها، وصفها، يقول ابن جماعة:

«إذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسى الكتب المعروف كيلاً يسرع تقطيع حبله، وإذا وضعها في مكان مصفوفة فلتكن على كرسى أو تحت خشب أو نحوه، والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلوة، ولا يضعها على الأرض كيلاً تتدى أو تبلى».

هذا وقد عدّ التجليد من العناصر الهامة في صناعة الكتاب وتجارته، وكان عمل المجلد مكملاً لعمل الخطاط والرسام والمذهب. وقد بدأ الاهتمام بالتجليد مع بداية تجليد المصاحف الشريفة، حرصاً على صيانتها وحفظها.

وكإجراء مكمل ومدعم للتجليد، عدّ الترميم من العمليات والواجبات التي يتعين على الخازن ومساعدته القيام بها، وفي هذا يقول ابن الساعي في جامعه المختصر، وذلك ضمن حديثه عن واجبات المدرس في مدرسة أبي حنيفة:

«... وليأمر خازنها بعد استصلاحها (أى الكتب) بمراعاتها ونفضها في كل وقت، ومرة شعنها (أى المتفرق منها)».

وقد لجأ البعض إلى تبخير الكتب كإجراء علاجي يستهدف الإبقاء عليها بعد تعرضها للفرق أو تغير رائحتها، ومن هؤلاء: سعيد بن المبارك النحوى المعروف بابن الدهان (ت سنة ٥٦٩هـ)، وكانت كتبه قد غرقت في بغداد وهو غائب، فلما حملت إليه بخرها باللادن، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه فأحدث له العمى.

وحرصاً على مقتنيات الخزنة ذات الكتب النفيسة فقد لجأ البعض إلى استخدام خزائن الكتب أو الأرفف المغلقة حرصاً على الكتب وغيرها من السرقة، والغبار، وأشعة الشمس، والحشرات، والحيوانات القارضة كالفئران وغيرها.

## سابعا: الخدمات والأنشطة

توافرت كافة العناصر التى أتاحت تقديم العديد من الخدمات والأنشطة لرواد خزائن الكتب العباسية، وكان من أهم هذه العناصر تشجيع الخلفاء وكبار رجالات الدولة على إنشاء خزائن الكتب العامة والخاصة، ومدها بكل ما تحتاجه من موارد بشرية ومادية، واستخدام القواعد والنظم التى تيسر استخدام هذه الخزائن.

وقدمت خزائن الكتب العباسية معظم الخدمات والأنشطة التى تقدمها مكتبات اليوم، والتى نتناولها هنا بإيجاز:

### ١ - خدمة القراءة والنسخ:

كانت الخدمة الأولى التى تقدمها جميع الخزائن على اختلاف أحجامها وتبعياتها، هى خدمة القراءة والنسخ، وقد ارتبطت منذ اليوم الأول لتقديمها بالأمر الإلهى الصادر من السماء والموجه إلى معلم البشرية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (اقرأ).

وإدراكاً لأهمية القراءة أو المطالعة وارتباطها بالكتابة أو النسخ فقد كان ينص عليها - كخدمة - فى نصوص الوقفيات، ومن هذا ما جاء فى وقفية المدرسة المستنصرية، التى اشترط فيها الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) «أن تجعل خزانة المدرسة برسم من يطالع ويستنسخ من الفقهاء».

### ٢ - إرشاد القراء:

ارتبط بخدمة القراءة والنسخ، توجيه القراء على اختلاف توجهاتهم وميولهم إلى ما يناسبهم من مواد قرائية، ومن العلماء الذين نصبوا أنفسهم مرشدين للقراء ابن الخاطبة الحافظ (ت سنة ٤٨٩ هـ)، وكان «لا يأتيه مستعير كتاباً إلا أعطاه، أو دله عليه»، وفى الدلالة إرشاد وتوجيه وخدمة.

### ٣ - الخدمات الوراقية (الببليوجرافية) :

أعد البيروني فهرساً أو ببليوجرافية (وراقية) خاصة بكتب محمد بن زكريا الرازي (ت سنة ٣١٣هـ)، وقد كانت ضمن رسالة للبيروني تحدث فيها عن مؤلفات الرازي، وعن الرازي نفسه وفي ختام الرسالة يعرض البيروني ما معه من كتب الرازي ليختار من بينها من وجهت له هذه الرسالة.

ومن دراسة هذه الرسالة نقف على درجة التقدم في مجال الخدمات الوراقية آنذاك، وقد قام البيروني - وهو هنا صاحب خزانة كتب خاصة - بتجميع وإعداد هذه القائمة التي جمع فيها بين الترجمة لحياة الرازي، والتجميع الوراقى لإنتاجه الفكرى، مدعماً بالشرح والنقد. وهذه الرسالة التي وصلت إلينا تعد واحدة من النماذج الأولى للوراقيات الشارحة.

وأسهمت الفهرستات التي أعدتها خزائن الكتب - على اختلاف أنواعها - ومنها الفهرستات الموضوعية، وفهرستات المؤلفين - أسهمت في تقديم هذا النوع من الخدمات.

### ٤ - الإعارة الخارجية :

تسهيلاً لحركة الكتب وتداولها، وتنشيطاً لاستخدامها، قدمت معظم خزائن الكتب هذه الخدمة، خاصة لمن تحول ظروفه دون الانتقال إلى الخزانة، أو الإقامة بها، أو شراء أو إجارة، أو نسخ الكتاب على نفقته، أو بيده.

وفي مُصنّفه «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» أفرد ابن جماعة (ت سنة ٧٣٣هـ) باباً بأكمله للحديث عن الأدب مع الكتب بما فى ذلك عاريتها، ونسخها... نورد منه ما يلى :

أ - لا يعار الكتاب للغير، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه.

ب - إذ استعار المستعير كتاباً فينبغي له أن يتفقده عند أخذه ورده.

ج - ينبغي للمستعير ألا يطيل مقام الكتاب المستعار عنده من غير حاجة، بل يرده إذ قضى حاجته، ولا يجسه إذ طلبه المالك.

وكان الخطيب البغدادي (ت سنة ٤٦٣هـ) ممن يُرغب في إعارة الكتب، ويذم من سلك في ذلك طريقة البخل والامتناع. وقد نقل في مصنفه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» قول سفيان الثوري في البخل بالعلم ما نصه:

« من بَخِلَ بعلمه ابتلى بثلاث:

- إما أن ينساه ولا يحفظ.

- وإما أن يموت ولا ينتفع به.

- وإما أن تذهب كتبه.»

وكان من بين الأدباء والعلماء من يماطل في إرجاع الكتب المستعارة أو لا يردها ومن هؤلاء: عبد الله بن أحمد الخشاب (ت سنة ٥٦٧هـ) «فكان إذا استعار من أحد كتاباً، وطالبه به، قال: دخل بين الكتب، فلا أقدر عليه.»

ويتحدث ياقوت الحموي عن التيسيرات والميزات التي أفاد منها وقدمتها له خزائن الوقف في مرو الشاهجان بقوله: «... كان لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد، وأكثرها بغير رهن.»

ومن حديث ياقوت نقف على أنه لم تكن هناك حدود بخصوص عدد الكتب المعارة للعالم أو الأديب خاصة إذا كان معروفاً أو طيب الذكر، وأن الذي يحدد عدد الكتب المعارة هو الحاجة، أي حاجة المستعير ومكانته. كما نقف على أن بعض الخزائن كانت تشترط الرهن مهما كانت منزلة العالم أو الأديب، وربما يرجع ذلك إلى ندرة الكتاب، أو شرط الواقف، أو غير ذلك.

## ٥ - التأليف والترجمة:

ارتبطت هذه الخدمة بحركة التأليف والترجمة التي غذتها الخلفاء ودعموها بمالهم ونفوذهم، فضلاً عن أموال الدولة وقد أمدت خزائن الكتب على اختلاف أنواعها وأحجامها الكثير من العلماء والأدباء، ومنهم الخزانة والنقلة (المترجمين)، وغيرهم بنفائس الكتب التي أعانتهم في كتابة مؤلفاتهم وترجماتهم، وكان من بين هؤلاء من تفرغ للتأليف أو الترجمة، وأفاد من كافة التيسيرات التي قدمتها الخزائن، وبصفة خاصة بيت الحكمة الذي قاد حركة التأليف والترجمة.

## ٦ - الخدمات التعليمية:

قدم الكثير من خزائن الكتب العباسية خدمات تعليمية للطلاب والمعلمين وغيرهم وذلك من خلال التيسيرات المتمثلة في الإقامة الدائمة أو شبه الدائمة بالخزانة، أو دار العلم، وتقديم الرواتب أو العون المالى للطلاب المعسرین، وتقديم الأدوات الكتابية مجاناً، وتعيين المعلمين والشيوخ للتدريس - في بعض الأحيان - داخل الخزانة، وغير ذلك من التيسيرات والخدمات ذات الصلة بالتعليم.

## ٧ - الخدمات والأنشطة التثقيفية والترويحية وغيرها:

كان للخلافات في الرأي بين الأدباء والعلماء في المجالس العلمية والمناظرات أكبر الأثر في تقدم الحياة الفكرية، وكانت خزائن الكتب تقوم بدورها في تدعيم كل فريق بالزاد الفكرى الذى يسانده في حواره ومناظراته. وكانت بعض هذه المناظرات واللقاءات والمجالس، وغيرها من الأنشطة الفكرية والثقافية تعقد في بعض خزائن الكتب أو على مقربة منها.

وكانت بعض خزائن الكتب تُعد من الأماكن المناسبة لإلقاء المحاضرات، والخطب، وكانت دار العلم ببغداد، ودار العلم بالموصل، من أشهر هذه الخزائن في هذا المجال.

ويتحدث الحريرى فى مقاماته عن رجل دخل دارالعلم ببغداد وأخذ «يبدى ما فى وطابه، ويعجب الحاضرين بفضل خطابه».

وفى دار العلم بالموصل، كان مؤسس هذه الدار «يجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره، وشعر غيره، ومصنفاته، ثم يملى من حفظه الحكايات المستطابة، وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطرفاً من الفقه، وما يتعلق به».

واستخدمت بعض خزائن الكتب كمنتديات ومراكز للقاء العلماء والأدباء وغيرهم، ومنها دار الكتب بالبصرة، التى يصفها الحريرى بأنها: «منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين منهم والمغتربين».

وبالإضافة إلى كل ما تقدم من خدمات وأنشطة فقد استخدمت بعض خزائن الكتب كأماكن للترويح واللهو ومنها خزانة كتب فخر الدين مبارك الحسينى المروذى (ت سنة ٦٠٢هـ)، التى قدمت لروادها لعبة الشطرنج، بالإضافة إلى الكتب.